مجلة العلوم الإنسانية —— عدد 49 جوان2018، المجلد أ، ص. ص 105-118 ——

مفاهيم الكناية، وتجلياتها الفنّية عند الزمخشري من خلال تفسيره الكشاف

د. الصديق حاجي

كلية الآداب و اللغات
قسم الآداب واللغة العربية
جامعة الإخوة منتوري
قسنطينة

ملخص:

من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وروعة بيانه، وبلاغة أسلوبه كناياتُه البديعة التي تجلّت في سياقها القرآني صورا متفرّدة في لغتها الدقيقة، وأساليبها الأخاذة المثيرة التي استأثرت باهتمام الباحثين والدار اته للمسة البيانية في الصورة الكنائية القرآنية ، مؤكدا أن كنايات القرآن الكريم كلّها إنّما سين الذين برعوا في تحليل معانيها التي اكتسبت أرقى مراتب الجمال والجلال في دلالاتها ومقاصدها. ومن هؤلاء الإمام الزمخشري الذي سنعرض لبعض نصوصه وتحليل استحسنت لأنّها تطرح مضامينها طرحا فذا، فيه الفنية والجمال، وفيه الذوق والطرافة والحشمة والأدب، وهو ما يعزّز رؤيته الجمالية الخاصة لهذه الصورة البيانية البديعة.

الكلمات المفتاحية : الكناية، الصورة الفنية، الكشاف، تحسين اللفظ، تفسير الكشاف للزمخشري.

Abstract

Among the aspects of the inimitability of the Holy Quran, of its amazing eloquence, and of its rhetorical style is its exquisite metonymies. These appear in their Quranic contexts as unique images with their precise language and their outstanding and charming styles. They have captivated the attention of scholars and researchers who have excelled in analysing their meanings which have acquired the highest ranks of beauty and greatness in their senses and aims. We will deal with the touch of eloquence in the Quranic image of metonymy as depicted by one of such scholars, the Imam Al Zamakhshari. We will analyse extracts of his texts and some of his analyses of this phenomenon. He stressed that all the metonymies included in the Holy Quran had been highly appreciated because they bear powerful meanings with art and beauty, taste and subtlety, decency and courtesy. These will be used to show his specific artistic view of this exquisite image of eloquence.

Key Words: Metonymy, artistic image, Al Kachaf, verbal refinement. AL Zamakhshari's'Tafsir AKechaf'

مقدّمة:

إذا كانت البلاغة سرا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم، فإنّ الكناية مظهر من مظاهر هذه البلاغة، ومعلم أصيل من معالم البيان، ومسلك من مسالك القول الجميل، يُعبَّر بها عن المعاني بأسلوب يكسب الكلام رونقا، والتعبير روعة ولطافة، لأنّ إيصال المعنى دون التصريح به أدخل في باب البلاغة، وأوسع على الأديب في مجال الإبداع والتفنّن في التعبير.

وعلى هذا كان أسلوب الكناية من أهم الأساليب التي يلجأ إليها الأدباء لتحلية كلامهم، وتطريز خطبهم وأشعارهم، لِمَا رأوا فيها من المبالغة وطرافة التعبير، من خلال محاولة إخفاء المعنى الصريح،

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2018

ذلك الإخفاء الذي يجنّبهم كثيرا ممّا يخشون التصريح به، وممّا لا يرضونه لعبارتهم من الفحش والابتذال »[1].

فالمتكلّم يعمد إليها حين يريد إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى آخر، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه، فيمكّنه من بلوغ غرضه بأسلوب ألطف وأحسن من الكشف. فكانت بذلك الفن الأكثر جذبا لانتباه البلاغيين، والأكثر إثارة لإعجابهم، لذلك أولوها عناية بلغت حدًّا كبيرًا، فتعدّدت مسمّياتها وأقسامها في مؤلفاتهم، وكثرت تعريفاتها، واختلفت نظرتهم إليها، وليس أدعى إلى البحث والدراسة من موضوع عليه اختلاف.

وانطلاقا من هذه الحقيقة كان بدهيا، ونحن في صدر حديثنا عن مصطلح الكناية، أن نطرح جملة من الأسئلة حول مفهومها ودلالاتها؟ وأغراضها وغاياتها؟ ومزاياها وقيمتها الفنية؟ ولماذا حظيت بهذا القدر من الاهتمام، فاحتلّت مكانة مرموقة بين الأساليب، فكان أسلوبها ألطف وأحسن من الكشف ؟ وانطلاقا من هذا المعطى، كان لا بدّ أن نطرح جملة من الأسئلة تتعلق بكيفية تعدد مصطلحات الكناية عند البلاغيين ؟ وكيف عبّر عنها الزمخشري في تفسيره الكشاف؟ ولماذا اضطربت كلمة القوم في الفرق بينها وبين التعريض؟ بل لماذا كثير من علماء البيان لا يفرّق بينهما، حتى ليبدو من كلامهم أنهما شيء واحد، أو أنهما لفظتان مترادفتان؟ والناظر في النصوص التي عرضت للكناية، يستخلص أنّه لا يكاد أحد من المهتمين بالدراسات الأدبية والأسلوبية والنقدية يغفل الإشادة بفضلها، وسيرورتها في كلام العرب، نظرا لما فيها من التصوير الجميل ، وتأكيد المعنى، وتجنّب التصريح فيما لا يحسن التصريح به. إذ « لا يترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه، أو التعريض به في بليغ الكلام إلا لغرض من الأغراض، كتوخي الإيضاح، والتقرير، أو بيان حال الموصوف، أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح، أو الذم، أو الاختصار، أو الستر والصّيانة، أو التعمية والإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل، أو عن الفاحش بالظاهر، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن »[2]، وغيرها. وعلى هذا احتلت الصورة الكنائية مكانة مرموقة بين الأساليب، وأخذت مقاما أثيرا من اهتمام الباحثين والدارسين، و« اتّسعت مساحة الكلام فيها، فشملت آراء اللغويين والمفسرين والأصوليين والمتكلمين والأدباء والنقاد والبلاغيين لدرجة بلغت حدّ الخلط بينها وبين التعريض في معناها اللغوي ومعناها الفني»[3] ، وذلك راجع إلى التقارب بينهما في أداء المعنى إشارة وتلميحا وإيماء، لا تصريحا وإفصاحا.« فكل البيئات الفكرية من لغويين ومفسرين وأصوليين ومتكلمين وأدباء وبلاغيين، لم تفصل الفصل الحاسم بين الكناية لغة، والكناية اصطلاحا، فتذبذب المؤشر بين أيديهم، أحيانا يتجه بشدة إلى الكناية اللغوية، أو يتخذ طريقه إلى الكناية الفنية، أو يخلط بينهما» [4]

وبناء على ما تقدّم يلاحظ المتتبع للمواطن التي وردت فيها الكناية أنّ المعنى الذي جاءت من أجله هو التلطّف في عرض المعنى بأسلوب راقٍ جميل، وتجنّب الهجن في القول، إذ هو أرسخ في الألفة بين الناس، وأمكن للهدف المقصود. ولعلّ ابن سنان الخفاجي (ت: 466هـ) كان مصيبًا، حين تحدّث عن الكناية في كتابه « سرّ الفصاحة»، وعدّها أصلا من أصول الفصاحة، وشرطا من شروط البلاغة، مع وضع الألفاظ موضعها، وملاءمتها للغرض المنشود منها، وهو ما يتضح من قوله : « ومن هذا الجنس حسن الكناية عمّا يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسُن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة، وإنما قلنا في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، لأنّ مواضع الهزل والمجون، وإيراد النوادر يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية، فإنّ لكل مقام مقالا، ولكل غرض فنّا وأسلوب»[5]

ولما كان المصطلح الفني له نصيب كبير في معناه اللغوي، فإنّ ذلك يحتاج إلى وقفة فاحصة للفصل بين الكلمة المعجمية، والكلمة نفسها مصطلحا فنّيا.

1 ـ مفهوم الكناية لغة : يتردّد لمصطلح الكناية في تراثنا العربي مدلولان كلاهما يستشعر معناها المعجمي الذي يدورُ حول السِّتر والتّغطية والإخفاء، والإضمار والإبهام. وتعريف الكناية مأخوذ من

اشتقاقها، واشتقاقها من السّتر. يقال : كنيت الشّيء إذا سترته، وإنّما أجري هذا الاسم على هذا النّوع من الكلام، لأنّه يستر معنى، ويظهر غيره، ولذلك سميّت كناية»[6] .

وواضح ممّا تقدم أنّ الكناية في مفهومها اللّغوي تعني السّتْر والخفاء الملحوظ من درج الكلام. ومن هنا، يبرزُ وجهُ المناسبة بين مدلوليْ الكناية اللُّغوي والاصطلاحي في أنّ كلا مِنْهُمَا، يستلزم الخفاء وعدم التّصريح. فإذا كنا قد عرفنا الكناية لغة، فماذا عن مدلولها الفني عند البلاغيين؟

2 ـ الكناية اصطلاحا :

يتضمّن المدلول الفني الذي تعَاطَاهُ أهلُ الأدب، في أنّ الكناية ضرْبٌ من إخفاء المعاني، وتخبئتها وراء روَادِفِهَا، لتحقيق أغراض يقصد إليها المتكلّم، حيث يترك التصريح بالمعنى الذي يريده، ويعمد إلى روادفه وتوابعه فيومئ بها إليه. وعلى هذا استقرّ في عرف البلاغيين أنّ مفهوم الكناية هو: «لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى »[7] الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته.

ولعلّ أهمّ تعريف لها فنّيًّا ـ ما قاله عبد القاهر الجرجاني ، وهو : «أنْ يريدَ المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلا عليه» [8] .

وغير بعيد عن هذا المعنى، ما ذكره أحدُ المحدثين حين عرض لتحديد مفهوم الكناية، مشيرًا إلى الفرق بينها وبين المجاز بقوله، هي : « لفظ يراد به ما يستلزمه ذلك اللفظ، ويُسْتَنْتَجُ منه، مع جواز إرادة المعنى الظاهر نفسه. فمن هذا يتّضحُ أنّ الكنايةَ تخالف المجاز في جميع أقسامه : من مجاز مرسل، واستعارة، ومجاز مركّب، لأنّ المجاز يفرض عدم إرادة المعنى الظّاهر مع إقامة قرينة تدُلّ على عدم إرادته» [9] .

إنّ المتأمّل لتعريفات الكناية يلاحظ أنها تقترب كثيرا من مفهوم المجاز، ذلك أنها تشاركه في استعمال اللفظ في غير ما وضع له في الأصل، كما تشاركه في وجود علاقة تلازمية بين المكنى به والمكنى عنه، وهذا ما جعل بعضُ العلماء يعُدّها ضربًا من المجاز وفرعًا عليه. ولكن الذي يفصل بينهما فصلا حقيقيًّا، في نظر جمهور البلاغيّين هو فرْق جوهري في طبيعة الدّلالة، وهو أنّ المجاز لا يصلح فيه إرادة المعنى الحقيقي، بل لابدّ أن ينطوي أسلوب المجاز على قرينة لفظية أو عقلية، تحول دون إرادته، فإذا قيل : جاءني الأسدُ، والمراد الإنسان الشُّجاع، فإنه دالّ على المجاز لا غير.أمّا الكناية فلا يمتنع معها إرادة المعنى الصّريح للعبارة، بل إنها تشتمل على قرينة تجوّزه، وتسمح به أحيانا، ولا سيّما في نوعيْ الكناية عن الصّفة أو الموصوف؛ ولذلك لا يمتنع عقلا في مثل قولهم : (فلان كثير الرماد)، أو (طويل النِّجَاد)، إرادة المعنى الصّريح، فضلا عن إرادة المعنى الكنائي الذي يرادفه أو يلازمه. فإنْ شئنا حملنا هذا على جانب المجاز، وإن شئنا حملناه على جانب الحقيقة، إلا أنه لابدّ من الوصف الجامع بينهما، لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها. ألا ترى قوله تعالى : ﴿ إنّ هَذَا أخي له تسعٌ وتسعُون نعجةً ولي نعجَةٌ واحدةٌ﴾ (ص : 23)، فكنّى بالنعجة عن النساء، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث. ومن أجل هذا لم يلتفت إلى تأويل من تأوَّلَ قوله تعالى : ﴿ وثيابَكَ فطَهّر﴾ (المدثر: 4)، أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية، لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع، وإلا كان التأويلُ صحيحًا. « وقد تمتنع إرادة المعنى الأصلي فيها أحيانًا، لخصوص الموضع نحو: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه : 5) كناية عن تمام القدرة، وقوّة التّمكّن والاستيلاء والملك. ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (الزمر : 67)، كناية عن قوة التمكّن وتمام القدرة »[10] .

وأيًّا ما كان الأمر، فإنّ التلازُم القائم بين المعنيين، في التعبير الكنائي مصدره ـ في الغالب ـ العرف والعادة، وهما لاشكّ يختلفان من عصر إلى عصر. يقول أحدُ الدّارسين: «الكناية هي الفنّ الوحيد الذي

يستبدل أثره، فيكون مدحا في مرحلة اجتماعية أو ثقافية أو حضارية ما، ثم يكون هو قدحا في مرحلة اجتماعية أو ثقافية أو حضارية أخرى للمجتمع نفسه، أو العكس»[11].

وليس كذلك كنايات الذّكر الحكيم، فهي خالدة لا ترتبط بعصر معيّن، وذلك لأنها تنبني من عناصر ثابتة في الإنسان أو الطّبيعة، لا تختلف باختلاف العُصُور، ولا يتفاوَتُ إدراكُها بتفاوُتِ الزّمان والمكان[12] . وهنا تكمن اللمسة البيانية، وسمة الإعجاز في كناية القرآن الكريم.

ـ الكناية وإشكالية تعدّد المصطلح، وتأصيل المفهوم :

بلغت عناية الدارسين بفن الكناية حدا كبيرا، وإن اختلفت بينهم مسمياتها ، وكثرت تعريفاتها، حيث لا يكاد يخلو أثر من آثارهم من الكلام عنها أو الإشارة إليها، فعلى المستوى الاصطلاحي يجد المتصفح لتاريخ الكناية في مصنّفات المتقدّمين تعدّد مسمياتها في مؤلفاتهم نذكر منها: اللّحن والتعريض والإشارة ولطافة المعنى ، والإرداف والتتبيع[13]، وهذه الأنواع داخلة في الكناية بمقاييس المتأخرين، فهم يقولون إن الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء، وبذلك تعدّدت أسماؤها واتّسع نطاقها.

ويأتي عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ) ، فيخطو الدرس البلاغي على يديه خطوات إلى الأمام، بل يصل إلى مرحلة النضج والاكتمال، فيقف عند دلالة الكناية البلاغية وقيمتها الفنية، ويأخذ معناها الاصطلاحي حظّه من الدِّقة والتَّحديد.

فالكناية عنده من الأساليب التي ينظر فيها إلى ما وراء دلالة اللفظ الظاهر. قال في تعريفها : «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ إليه ، ويجعله دليلا عليه »[14] .

لقد جمع عبد القاهر بين الكناية والتعريض في أكثر من موضع، وذكر أنهما أبلغ من التصريح لأنهما يزيدان في إثبات المعنى وتأكيده في النفوس : « فليست المزية في قولهم «كثير الرّماد» أنه دلّ على قرى أكثر، بل المعنى أنك أثبت له القرى الكثير من وجه، وهو أبلغ» [15] .

ويؤكّد في موضع آخر بلاغة الكناية والتعريض، حيث أجمع الجميع «ّ الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأنّ للاستعارة مزيةً وفضلا، وأنّ المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة»[16].

وعلى هذا فالكناية كما يقول : «فنّ من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنّا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض. كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب. وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطّرْف، ودقائق تعجز الوَصْف. ورأيت هذا شعرا شاعرا[17]، وسحرا ساحرا، و بلاغة لا يكمل لها إلاّ الشاعر المفلق، والخطيب المصقع. ...كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبتها له إذا لم تلقه إلى السامع صريحا، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية، والرمز والإشارة على أن ، كان له من الفضل والمزية، ومن الحسن والرونق، ما لا يقل قليله، ولا يجهل موضع الفضيلة فيه»[18].

4 ـ الأبعاد الدلالية ، والمقاصد الجمالية للكناية في تفسير الكشاف :

وقف الزمخشري عند كثير من الكنايات القرآنية يشرح ويحلّل، ويوضّح معناها، ويبيّن غاياتها ومقاصدَها الجمالية، وآثارَها البلاغية، وآية ذلك أنّ المُتتبِّع للتّراكيب الكنائية في دراسة الزمخشري يلاحظ أنه كان يستعمل عدّة مصطلحات للتعبير عن الكناية، منها الإرداف، و(مجاز عن)، و(عبارة عن) ، والتمثيل، والمثل.

كما أشار إلى أقسامها الثلاثة المعروفة، وإلى إرادة المعنى الحقيقي فيها أو عدمه، كما فرّق بين الكناية والتعريض، وقد وجد الزمخشري في الكناية، مثل ألوان البيان الأخرى وسيلةً ينافح بها عن وأفكاره الاعتزاليّة.

قال أحدُ الباحثين في تعليقه على الكناية عند الزمخشري: «فهناك معنى الكناية وبلاغتها، وإشارته إلى كناية الصفة عن الموصوف، والتّفرقة بين الكناية والمجاز، آرائه واعتبارات خاصّة في استعمال المصطلح، تُعدّ بالنسبة لما جرى عليه الاتّفاق خلطا، وقد تكون الكناية ذات صبغة اعتزالية»[19] .

أ ـ مفهوم الكناية عند الزمخشري :

عرّف الزمخشري الكناية في سياق بيان المراد من التعريض بخطبة النساء في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ (البقرة : 235.). قال: «الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولك: (طويل النِّجَاد والحمائل) لطول القامة، و(كثير الرّماد) للمضياف»[20] .

وقد علّق أبو موسى على تعريف الزمخشري للكناية بقوله: « لا يقصد فيه التعريف الجامع المانع للكناية، وإنّما أراد أن يذكر من أوصافها ما يفرّق بينها وبين التعريض، ولاضيرَ أن يكون هذا الوصف مشتركا بينها وبين غيرها من فنون البيان الأخرى، لأنّ المطلوب فيه أن يكون فاصلا بينها وبين التعريض. يقول العلامة سعد الدين في حاشيته المخطوطة على الكشاف معلّقًا على كلامه في هذه الآية : «ليس القصد إلى تعريفها حتى يعترض بأنّ ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له شامل للمجاز، بل إلى تمييز أحدهما عن الآخر»[21].[22]

وفي ذات السياق يضيف أبو موسى أنّ السّبب في كون تعريف الزمخشري «للكناية في هذا الموضع غير دقيق حتى كان شاملا لأنواع المجاز كلّها، السبب في ذلك أنه يعلم أنّ الكناية قد سبقه بتعريفها علامة القرن الخامس عبد القاهر»[23].

إنّ تعريفَ الزمخشري للكناية على إطلاقه يشمُلُ المجاز، ففيه ذكر الشّيء بغير لفظه الموضوع له، لكن قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. فهو - وإنْ كان يؤمن بأنّ الكناية أخت المجاز- فقد ذكر في موضع آخر ما يُفِيدُ أنه يدرك الفرق الجوهري بين الكناية والمجاز، على أساس أنّ التعبير الكنائي، يمكن حملُه على حقيقته الظّاهرة، يظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ (الكهف : 42) .

ففي الآية كناية عن النّدم للارتباط بين العض على الأصابع، وبين الندم والحسرة، وهذا شيء معنوي عقلي، صوَّرَهُ القرآنُ الكريم في صورة حسيَّة، يراها النَّاظِرُون في صُورَة من يَعُضّ يديه، فتكون أوقع في النّفس لارتباطها بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية التي لا تتبدل بتبدل العصور، حيث تظل هذه الكنايات محتفظة بقيمتها رغم اختلاف العصور والبيئات، وكنايات القرآن الكريم من هذا النوع. قال الزمخشري إنّ: «تقليب الكفّين كناية عن النّدم والتّحسّر، لأنّ النادم يقلِّبُ كفّيْهِ ظهْرًا لِبَطْن، كما كنّي عن ذلك بِعَضِّ الكَفّ والسُّقُوط في اليد، ولأنه في معنى النّدم عدّى تعديته بعلى، كأنه قيل فأصبح يندم»[24].

والنادم كما يفهم من كلامه - يقوم حقيقةً بضرب كفّ بكفٍّ، أو عضّ أنامله، حسرةً على فواتِ مطلوبه، ولكن ما تقتضيه الفصاحة هو الانصراف إلى المعنى الكنائي. يبدو ذلك فيما ذكره في تعدّد الكنايات لمعنى واحد مشيرًا إلى بلاغتها. يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ (الفرقان: 27) .

« عضّ اليدين والأنامل والسُّقُوط في اليد، وأكل البنان وحرق الأسنان والأرْم كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفها، فيذكر الرّادفة، ويدلّ بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السّامع عنده في نفسه من الرّوعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنّى عنه» [25].

فليس المرادُ من عضّ الظالم على يديه، تلك الحركة المادّية التي تتمثَّلُ في وضع اليدين بين الأسنان والضّغط بها عليهما، فتلك في ظاهرها لا قيمةَ لها في ذاتها، وإنما القيمة الحقيقيّة لما ترمُزُ له، وتدُلُّ

عليه، ونعني به الإحساس بالنّدم والتّحسُّر على ما فات، وذلك هو ما تضطرب به نفس الكافر في ذلك اليوم العظيم، وهو المراد من الآية الكريمة.
وفي هذا الكلام إشارة إلى صلة الكناية بالدّليل، وقد ذهب عبد القاهر إلى أنّ الأصلَ في بلاغة الكناية كونها دليلا على المكنّى عنه[26].

ويمكن أن نستَخْلصَ من أحاديث الزمخشري أنّ الفرق بين الكناية والمجاز في إمكان المعنى الأصلي أو استحالته. فإذا كان المعنى الأصلي للّفظ ممكنا كان اللفظ كناية، وإذا كان مستحيلا ، كان اللفظ مجازا متفرّعًا عن تلك الكناية، أيْ أنّ الكناية تكون مجازا إذا استحال معناها الحقيقي، وتكون حقيقة إذا أمكن هذا المعنى، وقد سمَّاها عند استحالة هذا المعنى مجازا متفرعا عن الكناية، لأنّ استحالته قرينة لعدم إرادته، وهو ما يتّضح عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران: 77). يقول : « فلان لا ينظر إلى فلان تريد نفي اعتداده به، وإحسانه إليه . فإنْ قلتَ : أيُّ فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر، وفيمن لا يجوز عليه ؟ قلتُ : أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية، لأنّ من اعتدّ بالإنسان التفتَ إليه، وأعاره نظرَ عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان. وإنْ لم يكنْ ثمّ نظر، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النّظر مجرّدا لمعنى الإحسان مجازا عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر »[27].

فالمقصود من الآية بيان شدّة سخط الله على هؤلاء الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، لأنّ الإنسانَ إذا سخط على إنسان آخر، قال له : لا أكلّمُكَ، وقد يأمر بحجبه عنه. ويقول : لا أرى وجه فلان. ولو نظرنا إلى قوله تعالى : « وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ » بمنظار المتأخرين لوجدناه حقيقيّا بكونه كناية، لجواز إرادة المعنى الحقيقي.

والزمخشري - كما يبدو- هو أوّل من ذكر مصطلح «المجاز عن الكناية» يعني أنه يصير مجازا فيما كان كناية فيه، وذلك كما يظهر في تفسيره للآيات التي يمتنع فيها إرادة المعنى الحقيقي تفاديا لملاحظة المعنى المباشر. وهذه هي الحكمة البيانيّة والدينيّة في هذا المصطلح الذي أضافه الزمخشري، واستخدمه في تفسير الآيات، وهي التي تتعلّق بتنزيه الله - عزّ وجلّ- عن مماثلة الحوادث مثل : غلّ اليد وبسطها، وعدم النظر، والاستواء على العرش ونحو ذلك.
لقد صرّح الإمام الزمخشري في بعض المواضع بما يفيد أنّ المعنى الحقيقي في الكناية يمكن أنْ يكون غير متحقّق في الواقع، إذا اشتهرت الكناية وكثُرَ دورانها على الألسنة[28].
إن المتتبّعَ لنصوص الزمخشري يلاحظ أنه يقرن أحيانا بين مصطلح الكناية والتعريض، رغم أنه قد فرّق بينهما. يقول في قوله تعالى : «هو أذى»، «فاعتزلوا النساء»، «من حيث أمركم الله»، «فأتوا حرثكم أنّى شئتم» [29] ، من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة»[30].
ب ــ تجليات اللمسة البيانية للكناية القرآنية في تحليلات الزمخشري :
اتَّفَقَتْ كلمةُ البلغاء، على أنّ الكنايةَ فنٌّ من التعبير، وسمة من سمات البيان، ومظهر من مظاهر البلاغة، ومسلكٌ من مَسَالك الخيال في البلاغَة العربيّة، توخّاه العربُ في أساليبهم، لتحلية كلامهم، وتطريز خطبهم وأشعارهم، فجاءت كثير من العبارات بليغةً بديعة، زاخرةً بالرّونق والجمال. وأنك لترى فيها من العجب العجاب، ومن غريب الصنعة، ومن بديع السحر، إذا كانت في باب الصناعات الخسيسة، والأشياء الحقيرة، لِمَا يذكر من منافعها[31].

ومِمَّا قالوا في سرّ بلاغتها، أنها تُعطيك في صُوَرٍ كثيرة الحقيقةَ مصحُوبَةً بدليلها، والقضيّة ببرهانها. وقد فَطَن القدماءُ من علماء العربية لهذه الظّاهرَة، لِمَا رأوْا فيها من المبالغة وطرَافة التّعبير، فطعّمَ الأدباءُ والكتّابُ بها أساليبَهم ونصوصَهُم الأدبية. ومن ثمّة أصبحت فنًّا بيانيًّا مطلوبًا، يُعَبَّرُ بها عن المعاني بشكل يكسب الكلام رَوْنقًا، والأسلوبَ جمَالا، لأنّ إيصالَ المعنى دون التصريح به أدخل في باب

البلاغة، وأوسع على الأديب في مجال الإبداع والتّفنّن في التعبير، كما أنه أوسعُ على عقل القارئ في لذّة الفهم.

ومن هذا المنطلق حظيت الكناية باهتمام الأدباء، وعلماء البلاغة، فأفردت في مؤلّفات خاصة، وصارت فنّا قائمًا بذاته، ومن هذه المؤلّفات التي اعتنت ببيان كنايات العرب نذكر كتاب: (المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء) لأبي العباس الجرجاني، وكتاب : (الكناية والتعريض) لأبي منصور عبد الملك الثعالبي ، وكتاب : (معجم المأثورات اللغوية والتعابير الدلالية) للأستاذ سليمان فيّاض. وهي كتب تضمّ في مجملها طائفة منوّعة من بديع الكنايات التي استخدمها العربُ في كلامهم، وطعّم بها الأدباء والكتّاب نصوصهم.

ومن ثمّة ليس بدعًا أن تحظى الكناية باهتمام العلماء، وتشغل حيّزا مهمّا في دراساتهم، ولعلّ من أبرز هؤلاء الإمام الزمخشري الذي عدّه أحدُ الدّارسين « من أعلام الدّرس الكنائي الفنّي في البلاغة العربية » [32] . إلى جانب : «قدامة بن جعفر صاحبُ تحديد المصطلح، وابن سنان الخفاجي صاحب التحليل الفني، والزمخشري صاحبُ اللَّوْحَات الفنّية الكنائية، ومن جاء بينهما، أو جاء بعدهما مَدِينٌ لهما بالفضل حتى عبد القاهر الجرجاني نفسه»[33].

وهذا ليس من باب المبالغة، فالمتتبّع لأحاديث الزمخشري، يلاحظ أنه يقف أمام الكثير من الكنايات القرآنية، مستشهدَا بالأمثلة، مشيرًا إلى مواطن الجمال فيها، مبيّنًا أغراضَها وغاياتها التعبيرية، ومقاصدها الجمالية مستقصيًا آثارَها الفنية، وأسرارَها البلاغية، ودلالاتها في التراكيب. فهو لا ينساق وراء الاشتغال بالتعريفات والتفريعات، والتقسيم والتبويب دون النظر في جمال الكلام ومحاسنه. فبلاغة الكلام هو بيت القصيد. قال الزمخشري: « ولا ترى أحسنَ ولا ألطفَ ولا أحزّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه»[34]. تلك هي نظرة الإمام الزمخشري إلى الكناية والاستعارة والمجاز وصور البيان عموما بوصفها سُبُلا ووسائلَ يُستَعانُ بها على تصوير المعاني وإبرازها، وأنّ جمالَها وروعتَها إنّما تكون بحسن تمثيلها لِما يُراد منها تمثيله، وإبرازها في أحسن معرض، ليحدثَ في النفس التّأثير المطلوب. ذلك ما يلاحظ على الزمخشري في دراسته التطبيقية للكناية خاصة، والألوان البيانية عامة.

فالكناية كما يراها شعبة من شعب البلاغة، وأنَّ من ميزاتها وفوائدها أنّ المعنى فيها يبنى على الإيجاز والاختصار في التعبير، فالكلمة الواحدة في الكناية تحمل في طياتها معاني كثيرة، يحتاج كل معنى إلى لفظ خاص للتعبير عليه، ومن هنا وجدناه يعرض لقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

(البقرة : 24) . مبيّنًا في سياق تحليله أنَّ « من اتَّقَى النار ترك المعاندة، ونظيره أنْ يقولَ الملكُ لحشمه : إنْ أردتم الكرامة عندي، فاحذروا سخطي. يريد : فأطيعوني واتَّبِعُوا أمري، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن »[35] .

وهذه الفضيلة التي سجَّلَهَا الزمخشري للكناية، فضيلةٌ بلاغيَّةٌ مُهِمَّة، إذ الإيجاز مقصد من مقاصد البلاغيّين، وضربٌ من قوّة الأسلوب وبلاغته وتأثيره، لذلك يعدّ مطمح نظر البلغاء، به تتفاوَتُ أقدارهم ، حتى أنّ بعضَهم سُئِلَ يوما عن البلاغة فقال : البلاغة الإيجاز.

وانطلاقًا من هذا المبدإ، يؤكِّد الزمخشري على هذه الميزة في الكناية التي تكرّرت في الكثير من أحاديثه، ومن أظهر الشواهد على ذلك، ما ذكره عندما تساءل كعادته عن الفائدة من التعبير عن الإتيان بالفعل في قوله تعالى: ﴿ وإِن كُنتُم في رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (البقرة : 23) فيجيب أنّ الإتيان «فِعْلٌ من الأفعال تقول : أتَيْتُ فلانا. فيقال لك: نِعْمَ مَا فَعَلْتَ، والفائدة فيه أنه جَارٍ مجرى الكناية التي تعطيك اختصارًا ووجازةً ، تُغْنِيكَ عن طول المكنّى عنه. ألا ترى أنّ الرجلَ يقول : ضربت زيدا في موضع كذا، على صفة كذا، وشتمتُه ونكَّلْتُ به، ويَعُدّ كيفيَّاتٍ وأفعالا. فتقول له : بئس ما

فعلتَ. ولو ذكرت ما أنّبْتَـهُ عنه لطال عليه، وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أنْ يقال : فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله»[36].

ومن فوائد الكناية إلى جانب فضيلة الاختصار، تأثير الصورة المكنّى بها، لأنها وإنْ كانت غير مقصودة بالنفي والإثبات، فإنَّ لها دخلا في الإيحاء والتأثير، ذلك أنها قد تكون مظهَرَ الشَّرَفِ المُكَنّى عنه وتعظيمه، كما أنّ عكسها، وهو التصريح قد يكون مظهَرًا للتنفير عن المُكَنَّى عنه وتحقيره، لِمَا فيها من حسن التَّلَطُّف في اطّراح الألفاظ المستهجنة. كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾. (مريم : 20) يقول الزمخشري بشأن هذه الآية الكريمة : « جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال، لأنه كناية عنه، كقوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهنّ ﴾ (البقرة : 237)، ﴿ أو لا مستم النساء ﴾ (النساء : 43) ، والزّنَى ليس كذلك، إنّما يقال فيه : فجر بها، وخبث بها، وما أشبه ذلك، وليس بِقَمِنٍ أنْ تراعى فيه الكنايات والآداب»[37].

وواضح من كلامه أنه يؤكّد على حقيقة هامّة، وهي اللمسة الفنية للكناية، ليقرّر أنّ كنايات القرآن الكريم إنما استُحْسِنَتْ، ولطُفَ مأخذُها لما رُوعِيَ فيها من الآداب الحسنة، واجتناب الألفاظ المستقبحة المستهجنة. يقول الزمخشري في سياق تحليله قوله تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة : 223) « وقوله : {هُوَ أَذى} {فاعتَزِلُوا النّسَاء} {وَ مِن حَيثُ أمَركُم الله} {فَأتُوا حَرثَكُم أنّى شئتم} (البقرة : 222، 223) · من الكنايات اللطيفة، والتّعريضات المستحسنة. وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أنْ يتعلَّمُوها، ويتأدّبوا بها، ويتكلّفوا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم» [38].

والزمخشري المتذوّق لفنّية كنايات القرآن وآثارها الجمالية، صرّح بذلك في أكثر من موضع من الكشاف، منها قوله: «ولا ترى أحسنَ ولا ألطفَ ولا أحزّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه»[39]. على أساس أنّ «أسلوب الكناية هو الأداة الفنية المستساغة للتعبير عن المعنى، وذلك حيث يكون التعبيرُ الصريح المباشر كاشفًا لما ينبغي ستره، أو مجافيًا للذّوق والخُلُق»[40].

وقد أجمع البلاغيون على هذا المسلك، وتمثّلوا له بأمثلة طالما ترددّت في كتب التفسير والبلاغة من ذلك ما جاء في قول أحدهم : «والكنايات لها مواضع، فأحسنها العدول عن الكلام القبيح إلى ما يدلّ على معناه في لفظ أبهى منه»[41].

من هنا كان من أبرز خصائص الكناية التعبير عن اللفظ القبيح ، أو الذي لا ترتاح الأذن إلى سماعه، بالجميل المألوف الذي تستطيبه الآذان، فتنصت إليه، أو تنشرح له الصدور، فتقبل عليه النفوس.

يكاد يجمع الباحثون على أنّ هناك أسبابًا تقتضي أحيانا التعبير بالأسلوب الكنائي، بدلا من الأسلوب الصّريح، لأن الأسلوب الكنائي يستعمل للستر والخفاء في المعاني التي يجْمُلُ إخفاؤُها، وعدم التصريح بها، لمنافاتها الآداب والذوق السليم، على ألا يؤدِّي هذا الخفاء إلى التعمية والتّعقيد والإخلال بالمعنى.

ومن أجل هذا، تُعتَبَرُ الكناية الأسلوب الموحي، والمهذّب في وقت واحد، كما تضيف اتِّساعا في الكلام، وتحافظ على الأدب الراقي، والخلق الكريم، والسلوك المهذّب المستقيم، «وذلك عن طريق العُدُول عن ذكرِ شيْءٍ بلفظه الدّال عليه لهجنته وفحشه، إلى لفظٍ آخر يدلّ عليه، لا تنفر الأسماع منه، كما في قوله تعالى : { أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء } النساء : 43. كناية عن الجماع»[42] « وملامسة النساء - في رأي بعض المفسرين - كناية عن الاتصال بين المرأة والرجل، وهي كناية في غاية الرِّقَّـة والأدب»[43].

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم - كما قال الزمخشري - هو خير معلّم لنا، حيث يريد الله - عزّ وجلّ - أن تشبعَ الكلمةُ الطّيّبة المهذّبة، والعبارة الموحية المعبّرة مِنْ غير شعورٍ بِحَرَج، أوجرح للحياء، باستخدام الأسلوب الكنائي، الذي فيه من التهذيب والتأديب وحسن المأخذ ما يرتفع بمستوى اللفظ، وسموّ الكلمة للتّعبير عن المعنى المراد في صورة أدبية حضارية راقية. وهو ما أشار إليه أحدُ المحدثين بقوله :

« وفي ستر المعنى الفاحش نوع من التسامي والتَّرَفع، ينتج عنه جوّ إيحائي خاص عند المتلقي، لِمَا للصورة الكنائية الجديدة وعناصرها من دلالة إيحائية مقبولة، تختلف عن الدلالة الإيحائية التي تترتب على التعبير المباشر. ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك كنايته سبحانه وتعالى عن قضاء الحاجة في قوله- عزّ وجلّ -: { كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ }(المائدة : 75) .» [44]، حيث كنّى القرآنُ الكريم عن عملية الطّرد بأكل الطعام، وعملية الطرد مستقبحة، فكنّى عنها بأكل الطعام رعايةً للذّوق الذي يستهجن ذكرُه صراحةً، وهذا دليل على أنّ عيسى - عليه السلام - وأمَّه لا يصلحان أنْ يكونا إلَهيْنِ، وفي ذلك تشنيع وتحقير لمن اتَّخَذَهما آلهة[45] .

ومن الكنايات عن الأشياء المستهجنة، وجاء التعبير عنها باللغو في مثل قوله تعالى: { وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً} (الفرقان : 72) ، أي لا يذكرون الشيء بألفاظه القبيحة، وإنما يكنّون عن لفظه، ويتنزّهون عن قوله معرضين عنه، منكرين له. قال الزمخشري : « اللغو ما ينبغي أنْ يلغى ويطرح... وقيل: إذا ذكروا النكاح كنُّوا عنه»[46]).

كما جاء لفظ السّوء ــ وهو الرّداءة والقبح في كلّ شيء ــ كنايةً عن البرص في قوله تعالى : { وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ }(طه : 22.). قال الزمخشري : «السوء : الرداءة والقبح في كل شيء، فكنّى به عن البرص، كما كنّى عن العورة بالسّوءة، وكان جذيمة صاحب الزباء أبرص، فكنّوا عنه بالأبرش. والبرص أبغض شيء إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسْمِهِ مجّاجة، فكان جديرًا بأن يكنّى عنه، ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحرّ للمفاصل من كنايات القرآن»[47].

وفي ضوء ما تقدّم يتّضح أنّ هذه التعبيرات الكنائية، تدلّ على عدّة جوانب نفسيّة، توَخَّى القرآنُ الكريم مراعاتها، والحفاظ عليها تكريمًا للألفاظ، واحترامًا للكلمات، ومراعاةً لأدب النُّفُوس، وكل ذلك يدل على أهمية الكناية، وجليل منزلتها في التعبيرات القرآنية، وما ا أوْدَعَ الله تعالى فيها من أسرار ولطائف ودلالات، انتظمت أرْوَعِ مثال، وأبرعِ نمَطٍ تمثَّلتْ فيه أرقى خصائصِ البيان العربي؛ ﴿ ليدّبّروا آياته ﴾ (ص:29).

وعلى هذا تُعَدُّ الكناية من بين أساليب البيان، التي يستطيع بها المرء أنْ يتجنبَ التصريحَ بالألفاظ الخسيسة أو الكلام القبيح، والتي قد يكون باعثها الاشمئزاز، أو الخوف من اللوم والنقد والتعنيف، والخوف من أن يدفع المرء بالخروج عن آداب المجتمع الذي يعيش فيه.« وإنما تحسن الكناية في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، فإذا حسن التصريح في موضع من المواضع لم تحسن الكناية فيه»[48]، وذلك من باب مراعاة المقام في الكناية، لأنّ لكل مقام مقالا، ولكل غرض فنا وأسلوبا.

ولذلك كانت الكناية الوسيلة الوحيدة، التي تُيَسِّرُ للمرء أن يقول كل شيء، وأن يعبّرَ بالرمز والإيحاء عن كل ما يجول بخاطره، ولذلك كانت أبلغ من التصريح بالمعنى.

وعلى هذا كان الزمخشري يقف مَلِيّا عند بلاغة صُوَر الكناية، متأمّلا دلالاتها وتراكيبَها، وظلالهَا الخفية، وأبعادَها الذوقية و الجمالية التي تضفيها على النسوج التعبيرية، منبّهًا على صنيعها في النفوس[49].

ومن أهم خصائص الكناية أنَّها تجسّمُ المعاني، وتصَوّرُ المعنويات في صورة حسية، فيتَّضِحُ للقارئ ما خفي عنه بجلاء ووضوح، وهذه ميزة عظيمة في الكناية، ومرتبة عالية من البلاغة والبيان، لأنّ المعنى الذي أتى بها من أجله، هو الإجمال في الخطاب، والدفع بالتي هي أحسن، وتجنّب للهجن من القول، إذ هو أرسخ في الألفة بين الناس، وأمكن للهدف المقصود.

إضافةً إلى ما سبق، هناك جملة من الأغراض البلاغية للكناية، كان الزمخشري قد أشار إليها في سياق تحليلاته للآيات القرآنية نذكر منها :

أ ـ التأكيد على المعنى وتقريره وتثبيته في الأذهان. يقول الزمخشري في قوله تعالى : { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله }(التوبة : 17)، يقول الزمخشري: «يعني المسجد الحرام لقوله: { وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}(التوبة : 19)... الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد، لأنّ طريقته طريقة الكناية، كما لو قلتَ : فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك»[50].

ب ـ الذّم والتّهكُّم : من أغراض الكناية أيضا أن يراد بها الذم والتهكم. يقول الزمخشري في قوله تعالى: { إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}(لقمان : 19). « والحمار مثَل في الذّم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه، ومن استفحاشهم لذكره مجرّدا، وتفاديهم من اسمه أنهم يكنُّون عنه، ويرغبون عن التصريح به، فيقولون : الطويل الأذنين كما يكنّى عن الأشياء المستقذرة »[51].

والكناية إذا أضيف إليها ذكر ما يشاكلها ويلائمها، فإنّ ذلك يزيدها حسنا وتأثيرا. يقول الزمخشري في قوله تعالى : { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}(الحج : 28.)، إنما «كنّي عن النّحر والذّبح بذكر اسم الله، لأنّ أهل الإسلام لا ينفكُّون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا، وفيه تنبيه على أنَّ الغَرَضَ الأصلي فيما يتقرّبُ به إلى الله أنْ يذكرَ اسمه، وقد حسّن الكلام تحسينا بيّنا أن جمع بين قوله: (يذكروا اسم الله)، وقوله: (على ما رزقهم)، ولو قيل : لينحروا في أيّام معلومات بهيمة الأنعام،لم تر شيئا من ذلك الحسن والرّوعة»[52].

إذ ليس بالخَفِيّ ما للكناية من فضيلة في إلباس المعقول ثوب المحسوس، إلى ما فيها من حيلة بترك بعض الألفاظ إلى ما هو أجمل في القول، وآنس للنفس. ألا ترى إليهم، وهم يكنون عن الموت بقولهم : (فلان استوفى أكله) أو بقولهم : (لحق باللطيف الخبير)، وعن الصحراء بالمفازة، وهي مهلكة إلى ما فيها من حسن التّلطّف في اطِّرَاح الألفاظ المستهجنة... وأنك لترى فيها من العجب العجاب، ومن غريب الصنعة، ومن بديع السحر، إذا كانت في باب الصناعات الخسيسة والأشياء الحقيرة، يذكر منافعها، كما قيل لحائك : ما صناعتك ؟ قال : زينة الأحياء وجهاز الموتى، وقال ابن باقلاني - بائع فول- :

أنا ابنُ الذي لا يُنْزِلُ الدَّهْرُ قَدْرَهُ * وإنْ تركت يومًا فسوف تعُودُ

ترى الناسَ أفواجًا إلى ضوء ناره * فمنهم قيامٌ حولَهُ وَقُعُودُ[53]

فمن أسباب جمال الكناية وبلاغتها ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه. كقوله تعالى: { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ }(ص : 23)، فكنّى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك[54]، لأنّ تركَ التصريح بذكر المرأة أجملُ منه، ولهذا لم تذكر في القرآن الكريم امرأة باسمها إلاّ مريم. قال السهيلي : وإنما ذكرت مريم باسمها على خلاف عادة الفصحاء لنكتة، وهي أنّ الملوكَ والأشراف لا يذكرون حرائرَهم في ملأ، ولا يبتذلون أسماءَهُنَّ، بل يكنون عن الزوجة بالفرس والعيال ونحو ذلك، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهنّ، ولم يصونوا أسماءَهُنَّ عن الذكر، فلما قالت النصارى في مريم ما قالوا صرَّحَ اللهُ باسمها، ولو لم يكن تأكيدا للعبودية التي هي صفة لها، وتأكيدا، لأنّ عيسى لا أب له، وإلاّ نسب إليه[55].

يقول أحد الدّارسين في بيان القيمة الفنية للكناية والتعريض، وإبراز مزاياهما وفضائلهما في بعض الدراسات البلاغية المعاصرة : «وللكناية والتعريض في الفصاحة موقع عظيم، فإنهما يفيدان الألفاظ جمالا، ويكسبان المعاني ديباجة وكمالا، ويحرّكان النفوسَ إلى عملهما، ويدعوان القلوب إلى فهمها، فهما يقعان من الفصاحة في أعلى المراتب، ويحوزان منها أعظم المناقب، وهذا إلى ما يفيد أنه من تأكيد المعنى وتقريره»[56].

ولا تخلو الإشارة إلى كيفية تذوّق الكناية، واستخلاص آثارها الفنية في أبحاث الدارسين المعاصرين[57]. حيث يزداد بريق الكناية، وترتفع قيمتها الفنية، إذا وضعت في سياقها، لذلك يجب أن ينظر إليها داخل سياقها، لأنّ في هذا النظر فوائد جمة، لا تتحقق في النظرة التقليدية، والقوالب الجامدة المتوارثة والمتكرّرة في كتب البلاغة. فقد « تتعدّد الكنايات في النص الأدبي، وتتداخل الإيحاءات فيها،

وتتآزر جزئياتها لينمو من خلالها حصاد فنّي جديد ومتميّز، ولابد لمتذوق الكناية من امتلاك القدرة التي تمكنه، من إدراك عمق الدور الذي تؤدّيه في البناء الفني، وامتلاك الحس الذي يتيح له سبر أغوارها، ومعرفة كنهها»[58]. ومن أهمّ الأشياء التي يجب على متذوّق الكناية أنْ يعرفَها، ما يقوم به العرف الاجتماعي في تحديد معاني كثير من الكنايات المستعملة في التراث الأدبي، وقد تفقد هذه الكنايات معناها مع الزمن، نظرًا لتغيّر المفاهيم والموروثات الفكرية، وهو ما يتطلب من القارئ الساعي إلى إدراك المعنى الثاني في الكناية، أن تكون لديه ملكة الاستدلال، وهو استدلال يؤسس على مرجعية مشتركة بين المبدع والمتلقّي، وليس استدلالا حرًّا، فإذا لم يعرف المخاطب من قول القائل: (فلان كثير الرماد) أنه مضياف، لن يتيسَّرَ له الاستدلال على المعنى المراد.

وعلى هذا، فالكناية وسيلة فنية، وأسلوب مصوّر يثري التعبير، ولا يقوى على إدراك جمال هذا الأسلوب، إلاّ كلّ بليغ متمَرّس لطُفَ طبعه، وصفت قريحته.

وقد أجمع البلاغيون على تفضيل الكناية على التصريح نظرًا لما تقوم به من دور ملموس في الرّقي بالتعبير، والارتفاع به إلى أعلى درجات الفصاحة.

والشواهد الدّالة على ذلك كثيرة جدا في القرآن الكريم، تتضمّن كلها كنايات بارزة، تطرح مضامينها طَرْحًا فَذًّا، فيه الفنية والجمالية، وفيه الطرافة والإبداع والذّوق والحشمة والأدب.

وعلى هذا الأساس، تأتي الكنايات القرآنية في المقدمة، إذا عددنا الدقائق الفنية التي أهّلت القرآن الكريم، لأنْ يكون معجزا بنظمه، وأسلوبه، وسحر بيانه. فمن الفصاحة والبلاغة أن توضع الألفاظ موضعها الذي لا يحسن فيه غيرها، وتلك من أهمّ السمات التي تحفظ للكناية قيمتها الفنية والجمالية، لأنّ موت الكناية وتشابه استعمالها، مع أيّ استعمال صريح، يفقدها قيمتها الفنية، وسرّ تأثيرها البلاغي.

الخلاصة والاستنتاج:

استنادا على ما تقدم نخلص إلى جملة من النتائج ، نوجزها فيما يأتي:

1ـ لقد أظهرت لنا هذه الدراسة أنّ الكناية من التعبيرات البيانية الغنية بالاعتبارات والمزايا، وأمّا الملاحظات البلاغية، فهي تضفي على المعنى جمالاً، وتزيده قوة، حيث يستطيع الأديب المتمرّس أن يحقق بأسلوب الكناية العديد من المقاصد الجمالية، والأهداف البلاغية.

إنّ الصورة الكنائية في القرآن الكريم لها بلاغتها الخاصة، ولها من الفضل والمزية، ومن الحسن والرونق، ما جعلها راقية في إيحاءاتها، متميزة في تراكيبها ودلالاتها، واتساقها الكامل مع المعنى، وهو ما أكسبها خاصية أسلوبية بلغت الذروة في الفصاحة والبيان من مواضع الإعجاز والجمال في تركيب الجملة القرآنية. واعتبارا لذلك، تأتي الكنايات القرآنية في المقدمة إذا ما عدّدنا الدقائق الفنية التي جعلت القرآن الكريم معجزاً بنظمه، فمن الفصاحة والبلاغة أن تضع الألفاظ موضعها الذي لا يحسن فيه غيرها، ومن وضع الألفاظ موضعها الذي لا يحسن فيه غيرها أن تكنى بها عما لا يحسن التصريح به من قول أو فعل. وعليه صارت الكناية ركنًا من أركان البلاغة التي لا يمكن أن يغفلها الدارسون. وقد كان للزمخشري في هذا الباب لفتات فنية، وإشارات لطيفة، استطاع من خلالها أن يكشف كثيرا من صور الكناية في القرآن الكريم، ويقف على خفاياها، وأبعادها الفنية، ومقاصدها الجمالية، معتمدا على ذوقه وحسّه الفني بأسرار العبارة وسر بلاغتها، وفهم دقيق لمغزى الكلام، وخصوصيات التعبير القرآني. فقد أشار في كثير من تحليلاته إلى أنّ الكناية طريقٌ من طرق الإيجاز والاختصار، كما أنها وسيلة للإقناع حيث تقدم لنا المعاني مؤكدة بدليلها، وهو ما تبيّن لنا ذلك من خلال شواهد هذه الدراسة.

2 ـ لقد انفردت كنايات القرآن الكريم بفصاحتها الخاصة، وطريقتها البديعة في تأدية المعاني، فهي أبلغ من التصريح؛ لأنها - في كثير من صورها - تعطي الدعوى ودليلها، والقضية وبرهانها، والكلام المقرون بدليله أقوى من الكلام العاري عن الدليل والبرهان.

وهي في سياقها المحدّد تؤدي غرضها أداء لا يمكن لأيّ كناية أخرى أن تقوم بها، من حيث مضمونها ومؤداها، وجمالها الشكلي، وتناسقها المعنوي، لتصل بقارئها أو سامعها إلى استيعاب دلالتها ومعناها. حيث يبلغ جمال النظم الكنائي الذروة، في رسم المعنى المراد بكل تفصيلاته، هيئةً، وصورة، هيئة

ودلالة، وهذا مُنتهى التعبير البياني المعجز. ويكفي ما للكناية من وثيق الصلة بالقرآن الكريم، ومعانيه الشريفة، إضافة إلى شغف العرب بالكناية، وافتتانهم بها، وافتنانهم فيها، فالكناية لون من ألوان التعبير، وقد عني بها نقاد العرب، وعرفوا لها مكانتها في الإيضاح والتأثير؛ لأنها وردت كثيراً في كلام العرب والقرآن الكريم، وكانت، في كتاب الله، موحية، وموجزة، ومصورة للمعاني خير تصوير، وكانت مؤدبة مهذبة، تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه، كما رأينا من خلال استعراضنا لأسلوب الكناية في سورة النساء على سبيل المثال.

3 ـ إنّ الكناية في النظم الكريم، تملك سمةَ جمالية فريدة، تدلّ على النمط الإعجازي فيه، وأنّ جمالَها وبلاغتها نابعة من نظمه، في سياقات عديدة، أضفت على الأسلوب قيمة دلالية وجمالية، تَحقّقَ بمقتضاها الإعجاز.

4 ـ لقد أولى النظم الكريم الكنايةَ القرآنية عناية خاصة، فاختارها بدقة، فكانت لكل حالة مُرادة كناياتها الخاصة، في قطعيّةِ الدلالة، وتقرير الحقيقة المطلقة، كما كان للبعد الدلالي في السياق القرآني أثرٌ فعّال، في صياغة المعاني، بالاعتماد على اختيار الألفاظ والدلالات.

5 ـ إنّ الكناية القرآنية ليست عبارة تقال وتكتب كأي عبارة بشرية، فقد أودعها الله تعالى قانونه الثابت الذي يجب أن تؤدي على أساسه الوظيفة التي وُجِدت من أجلها، فكانت لها دلالتها وفصاحتها ومذاقها ووقعها الخاص بها، بعيداً عن الأساليب الخيالية والإيحائية التي يستخدمها الإنسان، للتأثير في نفوس سامعيه، لأنها تسمو فوق الخيال والإيحاء البشري الذي يستخدمه للفنون الشعرية والأدبية، ويقيس عليه معايير النقد الذاتية غير المعللة في كثير من الأحيان، لأن كنايات القرآن كمال بلا نقص لا نعلم حدَّها ولا مداها ، وكنايات البشر نقص بلا كمال.

الهوامش و المراجع:

1 ـ علم البيان ـ دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية ، بدوي طبانة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1981، ص: 223.

2 ـ المرجع السابق، ص: 141.

3 ـ الصورة الفنية في شعر المتنبي ـ الكناية والتعريض ـ ، منير سلطان، منشأة المعارف بالأسكندرية، 2002، ص:101.

4 ـ المرجع السابق، ص: 104.

5 ـ سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ، شرح و تصحيح ، عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة، 1389هـ -1969م ، ص : 156 . وينظر أيضا، ص : 223.

6 ـ الكناية والتعريض ، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ، دراسة و شرح وتحقيق : عائشة حسين فريد، د. ط، د. ت ، ص : 21.

7 ـ في البلاغة العربية - علم البيان - ، عبد العزيز عتيق ، ص : 203. وينظر، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السبكي (ت: 773هـ) ضمن شروح التلخيص ، دار السرور ، بيروت، د.ت، ص : 237 وما بعدها.

8 ـ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : الشيخ محمود محمد شاكر، نشر مكتبة الخانجي ، القاهر، 1984م، ص : 66، وقد أفاده الجرجاني من تعريف قدامة بن جعفر للإرداف في نقد الشعر ، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3، 1978م، ص : 155-156.

9 ـ المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1، مارس، 1979م، ص : 223.

10ـ تفسير الكشاف، للإمام الزمخشري، تحقيق : محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط2، 1977، ج1، ص : 180.

11 ـ الصورة الفنية في شعر المتنبي - الكناية و التعريض ، منير سلطان ، ص : 101.

12 ـ ينظر، التعبير البياني ـ رؤية بلاغية نقدية ـ ، شفيع السيد ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1988، ص : 116 و ما بعدها. وينظر: فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور ، رجاء عيد ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ط2، 1988م ، ص : 440 - 441 .
13 ـ ينظر: قواعد الشعر، أبو العباس ثعلب، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط الحلبي، 1948، ص: 43،44. وفي البلاغة العربية ـ علم البيان ـ، عبد العزيز عتيق، ص: 206.والبرهان في وجوه البيان، ابن وهب ، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، 1969، ص: 133.
14 ـ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ص : 66 .
15 ـ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ص : 69.
16 ـ المصدر السابق نفسه ، ص : 69.
17 ـ شعر شاعر: جيد. قال سيبويه : أرادوا به المبالغة و الإشادة، والأكثر في هذا الضرب من المبالغة أن يكون اللفظ الثاني من لفظ الأوّل.
18 ـ دلائل الإعجاز
19 ـ البلاغة عند الزمخشري، مع تحقيق نص له، رسالة دكتوراه، إعداد : مصطفى ناصف، جامعة إبراهيم باشا الكبير بالقاهرة، كلية الآداب،1951- 1952م ، ص : 493.
20 ـ تفسير الكشاف، للإمام الزمخشري، تحقيق : محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط2، 1977، ج1، ص : 137.
21 ـ حاشية سعد الدين على الكشاف ، للعلامة سعد الدين التفتازاني، مخطوط، رقم 1804م، الأزهر، ورقة : 118.
22 ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1988، ص : 557.
23 ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد محمد أبو موسى ، ص : 564.
24 ـ الكشاف ، ج3، ص : 208.
25 ـ الكشاف ،ج4، ص : 146.
26 ـ : ينظر ، دلائل الإعجاز، لبعد القاهر الجرجاني ، ص : 66.
27ـ الكشاف ، ج1، ص : 182.
از ، لبعد القاهر ، ص : 235.
28 ـ : ينظر، التصوير البياني ، محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة، القاهرة،ط4، 1997، ص:400 - 401.
29 ـ سياق الآية : {29- سياق الآية ' وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ{222} نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُم }، البقرة : 222 - 223.
30 ـ الكشاف ، ج1، ص : 129.
31 ـ ينظر، علم البيان ، بدوي طبانة ، ص : 223.
32 ـ الصورة الفنية في شعر المتنبي - الكناية و التعريض ، منير سلطان ، ص : 125.
33 ـ المرجع السابق نفسه ، ص : 125.
34 ـ المرجع السابق نفسه ، ج4، ص : 30.
35 ـ الكشاف ، ج1، ص : 52.
36 ـ الكشاف ، ج1، ص : 52.
37 ـ الكشاف ، ج4، ص :5 . وقمن : بعنى جدير. يقال: أنتَ قَمِنٌ أو قمين بكذا : أي جديرٌ به. المعجم العربي الأساسي - لاروس - مادة : (قمن).
38 ـ الكشاف ، ج1، ص : 129.

39 ـ المرجع السابق نفسه ، ج4، ص : 30.
40 ـ التعبير البياني ، شفيع السيد ، ص : 120 . ونحوه ينظر تحليل الزمخشري للآيات: البقرة : 187، الكشاف ، ج1، ص: 112.والبقرة : 197، قال الزمخشري في تفسيرها : «(فلا رفث) فلا جماع لأنه يفسده، أو فلا فحش من الكلام» الكشاف، ج1، ص : 118، وسياق الآية (الحجّ أشهر معلومات فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث و لا فسوق ولا جدال في الحجّ)» .و الأعراف : 189، يقول الزمخشري في تفسيرها : «و التغشي كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان و الإتيان»، الكشاف، ج2، ص : 150.
41 ـ نهاية الأدب في فنون الأدب ، للنويري ، دار الكتب ، ط2، 1930م، ج3، ص : 147.
42 ـ رؤى في البلاغة العربية ـ دراسة تطبيقية لمباحث علم البيان ـ، زين كامل الخويسي ، و أحمد محمود المصري ، ص : 230.
43 ـ التعبير البياني ، شفيع السيد ، ص : 121.
44 ـ رؤى في البلاغة العربية ، زين كامل الخويسي، و أحمد محمود المصري، ص : 230.
45 ـ ينظر، الكشاف ، ج2، ص : 41 و 42.
46 ـ الكشاف ، ج4، ص : 157.
47 ـ الكشاف ، ج 4، ص : 30.
48 ـ البلاغة العالية ـ علم البيان ـ، عبد المتعال الصعيدي ، ص : 142.
49 ـ ومن أظهر الشواهد على ذلك ، ينظر تحليله : الفرقان : 27 ، الكشاف ، ج 4، ص : 146.
50 ـ الكشاف ، ج2، : 175. ونحوه ينظر، نحليله : القصص : 41. الكشاف ، ج4، : 226.
51 ـ الكشاف ، ج5، : 20.
52 ـ الكشاف ، ج4، ص : 82 . وينظر تحليله ، آل عمران : 97، الكشاف ، ج1، ص : 188 . والحجرات : 7، الكشاف ، ج6، ص : 16.
53 ـ علوم البلاغة ـ البيان والمعاني والبديع ـ ، أحمد مصطفى المراغي ، دار القلم ، بيروت ،لبنان، دط، دت، ص : 287 - 288 .
54 ـ ذكر الزمخشري حينما تحدث عن قصة سيدنا داود عليه السلام للتنبيه على أنه أمر يستحي من كشفه فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به، وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته، وخصّ هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة. ينظر، الكشاف ، ج5، ص : 139.
55 ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي ، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1973م، ج1، ص : 287.
56 ـ : البلاغة العالية ـ علم البيان ـ، عبد المتعال الصعيدي ، ص : 141.
57 ـ ينظر، تحولات البنية في البلاغة العربية، أسامة البحيري ، دار الحضارة للطباعة و النشر ، ط1، 2002م، ص : 247.
58 ـ المرجع السابق نفسه ، ص : 225.